

التعليق على صحيح البخاري

[الدرس الأول]

لفضيلة الشيخ الدكتور
صالح عبد الكريم حفظه الله ورعاه

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل لا هادي له وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد: . . .

فإن خير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار، ثم أما بعد: . . .

بدايةً أقول لكم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لصفوان بن عسال كما في مسند الإمام أحمد لما قال: جئتكم أطلب العلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **«مَرْحَبًا بِطَالِبِ الْعِلْمِ»**.

إن من أجل العبادات التي تنفع المرء في دنياه وآخرته طلب العلم، والعلوم الشرعية على أنواعٍ ثلاثة:

١- علوم المصادر. ٢- وعلوم المقاصد. ٣- وعلوم الوسائل.

علوم الوسائل هي الآلات التي يترقى بها الطالب إلى المقاصد، كدراسة أصول الفقه ومصطلح الحديث والقواعد الفقيهية وعلوم اللغة وأما علوم المقاصد فهي متمثلة في دراسة العقيدة ودراسة الفقه

وأما علوم المصادر فهي التي يستمد منها الدليل وهي القرآن والسنة، ومن أجل هذه العلوم بلا شك ولا ريب علم الحديث، معرفة حديث النبي صلى الله عليه وسلم، ودراسة الحديث منقبة عظيمة إذ به المرء يفوز بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم **« نَصَرَ اللَّهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاها، فَبَلَّغَهَا مَنْ لَمْ يَسْمَعْها، »**.

فهذه دعوة من النبي صلى الله عليه وسلم بالنظارة والرونق وتحمل في طياتها معاني السعادة والفلاح والسرور في الدنيا وفي الآخرة، وأصحاب الحديث كما قال الخطيب البغدادي في كتاب " شرف أصحاب الحديث " هم أحظى الناس بفضل الصلاة على النبي ﷺ وأحاديث الصلاة على النبي ﷺ متضافرة متواترة **«من صلى عليَّ صلاةً صلى الله به عليها عشرًا»**.

فمن يدرس حديث النبي ﷺ يتكرر منه الصلاة على النبي ﷺ فيحظى بهذا الأمر، ولا شك أن من أمهات كتب الأحاديث الكتب الستة، وعلى رأس هذه

الكتب الستة " صحيح البخاري " هو من أفضل الكتب بعد كتاب الله ﷺ عند جمهور العلماء وهو كتاب عظيم في تأليفه وفي تقسيمه وفي ترتيبه كما سوف يأتينا بإذن الله ﷺ وهذا الكتاب هو الذي اخترناه لنعيش معكم التعليق عليه.

وقبل أن نزدلف في اللقاءات القادمة إلى تعليق على هذا الكتاب أحببت أن تكون اللقاءات الأولى هي مقدمات حول المصنف، ثم مقدمات حول الكتاب، إذ أن من أجدديات العلم قبل أن يلج الإنسان إلى أي فن من الفنون أن يقف على صاحب الكتاب أو صاحب المتن أو صاحب النظم ويتعرف حاله، ثم ينتقل الإنسان إلى معرفة الكتاب في المنهج وفي الطريقة.

وفي هذا اللقاء بإذن الله ﷺ سوف نتكلم عن سيرة الإمام البخاري وفي الحقيقة سيرة الإمام البخاري من السير المشوقة التي يستفيد منها طالب العلم وينتفع منها نفعًا عظيمًا؛ لأن فيها مواقف عملية تطبيقية يستطيع الإنسان أن يستفيد منها وهي ترفع من همة الإنسان كثيرًا حينما يطالع على هذه السيرة المباركة.

الإمام البخاري كنيته أبو عبد الله، واسمه محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة البخاري الجعفي، هذا اسمه بتمامه، على خلاف سوف نذكره بإذن الله ﷺ.

• اشتهر الإمام البخاري بلقبين:

اللقب الأول: إمام المحدثين.

اللقب الثاني: أمير المؤمنين في الحديث.

وهذه الألقاب كثيرة عند علماء الحديث، سواء يلقب العالم على وجه يعني التدرج يلقبون الشخص بالمسند ثم ينتقلون إلى مسمى المحدث ثم ينتقلون إلى مسمى الحافظ ثم ينتقلون إلى مسمى أمير المؤمنين في الحديث، وهي من أعلى الرتب عند علماء الحديث في التسميات.

وهذه النسبة الجعفي، هل كان البخاري من الجعوفيين؟ لا، هذه النسبة؛ لأن جده الثاني المغيرة كان مجوسياً فأسلم على يد الجعفي يماني الجعفي والي بخارة

فنسب إليه، في كتب الحديث لما يتكلمون على النسبة نسبة الولاء لهم ثلاثة صور:

(١) الولاء بالعتق وهو المشهور.

(٢) الولاء بالإسلام.

(٣) الولاء بالقبيلة أو ما يسمى ولاء الحلف.

فمن أعتق شخصًا نسب إليه ولا عتاقة، ومن أسلم على يديه شخص نسب إليه ولا إسلام، ومن تحالف مع قبيلة من القبائل على النصره وغيرها ينسب إليهم ولاء الحلف والقبيلة.

فهذه النسبة للبخاري نسبة الجعفي إنما نشأت من هذا النوع من الولاء وهو ولاء الإسلام وهو السائد عند علماء الحديث، والبخاري طبعًا نسبةً إلى بخارة التي ولد فيها وتعتبر في الزمان الأول من أعظم المدن فيما وراء النهر.

اليوم تقع في جمهورية أوزباكستان في الإطلاق الحديث بعدما تفرق الاتحاد السوفيتي إلى الجمهوريات السبع أوزباكستان هي التي تمثل اليوم منطقة بخارة التي منها الإمام البخاري.

من الأجداد كما ذكرنا بردزية طبعًا هذا الضبط لهذا الجد فيه خلاف طويل على خمسة أقوال ورجح هذا الضبط الذي ذكرناه الحافظ ابن حجر وابن ماكولة في الإكمال وغيرهم من العلماء ولعل هذا هو الأقرب.

من أجداده أيضًا في الاسم إبراهيم محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، إبراهيم لم تذكر كتب التاريخ شيئًا في سيرته أو في ترجمته، أما والده إسماعيل وهذا يهمنا يعني في نشأة الإمام البخاري والده كنيته أبو الحسن وهو من علماء الحديث، وكان مهتمًا بالحديث ومهتمًا بعلم التاريخ، ورحل مبكرًا في طلب العلم والتقى بعلماء الحديث.

الإمام البخاري ترجم لوالده في كتابه الشهير " التاريخ الكبير " من كتب الجرح والتعديل عند العلماء، ذكر والده فقال: إسماعيل بن إبراهيم بن مغيرة الجعفي أبو الحسن، رأى حماد بن زيد وصافح ابن المبارك بكلتا يديه وسمع مالكا فهذا يدل على أنه من علماء الحديث، كونه التقى بحماد بن زيد وهو من علماء

الحديث وصافح بن المبارك وأخذ من الإمام مالك وكلهم من أجلة علماء الحديث، هذا يدلنا على أن والده كان له عناية بعلم الحديث.

وذكر الذهب في تاريخه عن حدث عنهم، وقبل ذلك ابن حبان في كتاب "الثقات" قال: يروي عن مالك وحماد بن زيد روى عنه العراقيون والذهب في تاريخ الإسلام، قال: وحدث عن أبي معاوية وجماعته روى عنه أحمد بن حفص والحسن بن الحسين.

وترجم له أيضًا الحافظ ابن حجر في "التهذيب" بقوله: روى عنه يحيى بن جعفر البيكندي وغيره.

كل هذه النصوص تدل على أن والد الإمام البخاري كان له عناية بالحديث وله عناية بالرواية، وأيضًا إلى جانب عناية والده بعلم الحديث فكان يتصف بالورع والتقوى كما تذكر كتب السير في ترجمته.

يقول أحمد بن حفص: دخلت على إسماعيل والد أبي عبد الله عند موته، وتأملوا إلى هذا الأثر فقال: لا أعلم من مالي درهمًا من حرام، ولا درهمًا من شبهة، قال ابن حفص في التعليق: فتصاغرت إلي نفسي عند ذلك، هذا يدل على شدة ورعه في باب الحلال والحرام وفي باب الأموال، وكان والده تاجرًا، صاحب مال ويدل على صدقه في هذه التجارة وبره ولا يخفاكم حديث النبي ﷺ: «التجار هم الفجار إلا من بر وصدق». فكان رحمه الله ورعًا تقياً في هذا الباب.

وأما والدته والدة الإمام البخاري أيضًا كانت على جانب من الصلاح وعلى جانب كبير من تقوى الله ﷻ وكانت لها أثر في تربية أبنائها وكانت كثيرة القيام والدعاء.

ومما ذكر في ترجمة الإمام البخاري وهي من اللطائف الجميلة ترجم له أحدهم قال: ذهبت عينا محمد بن إسماعيل في صدره، يعني فقد بصره وهو في صغر سنه، فرأت والدته في المنام إبراهيم الخليل عليه السلام، فقال لها: يا هذه قد رد الله على ابنك بصره لكثرة بكائك أو لكثرة دعائك.

فأصبحت الأم وقد رد الله على ابنها البخاري بصره، فهذه إشارة إلى صلاحها وعلاقتها مع الله ﷻ، وكنت تشجع البخاري على طلب الحديث،

وأدخلته في الكتاب في سن مبكر حتى بلغ العاشرة، وكانت تربي أبنائها على طاعة الله فاصطحبتهم معها إلى الحج في رحلة الحج خرجت هي وابنها أحمد والبخاري إلى الحج.

ونعم التربية أن تأخذ أبنائها إلى أماكن الطاعة وأداء الفرائض رغم صغر سن البخاري آن ذاك.

وأما أخوه أحمد فلم يرد شيء في ترجمته إلا قص الحج أنه خرج مع البخاري إلى الحج والبخاري كما سوف يأتينا لما خرج مع والدته إلى الحج بقي في مكة ورجعت الأم وأخوه أحمد إلى بلدهم بخارة.

وفي ترجمة البخاري حصل خلاف هل كان للبخاري ذرية؟ وهل كان له زوجة؟ مسألة خلافية بين أهل التراجم والسير، فبعضهم ذكر يعني أن البخاري لم يتزوج وبعضهم ذكر أنه كان له زوجة وهو الصحيح كما سوف يأتينا.

والحاكم النيسابوري رحمه الله في كتابه "المعرفة" لما ذكر الإمام البخاري ومسلم قال: "لم يعقبا" أي لم يكن لهم شيء من الولد ولكن في هذا النقل نظر كما عند الكثير من علماء السير.

يقول محمد بن أبي حاتم، وهذا الاسم أود أن تحفظوه محمد بن أبي حاتم هذا الاسم لصيق جداً بالإمام البخاري لأنه وراق الإمام البخاري الذي كان يكتب له وينسق الدفاتر ويشترى الكاغد للإمام البخاري.

وأغلب النقول الدقيقة في ترجمة الإمام البخاري نقلها الوراق، وسبحان الله قد كتب ترجمة جميلة وموسعة عن الإمام البخاري ولكناه فقدت ولو جدت لكانت من أفضل المصادر في الترجمة لإمام البخاري، وقد أدرك بعض المؤرخين هذا الكتاب ونقلوا منه أجزاء.

وجه الشاهد أن النقول عنه عن وراق البخاري، ، يتنقل بين مجالس المحدثين في بخارة منذ نعومة أظفاره وبواكير الطلب عاشها مع علماء الحديث، ومن اللطائف في بدايات الطلب العلم أنه كان يصحح لبعض شيوخه الأخطاء في الإسناد وهو في سن مبكرة وهو ابن إحدى عشرة سنة.

قال البخاري: فجعلت أختلف إلى الداخلي وغيره وقال يوماً فيما كان يقرأ للناس: سفيان عن أبي الزبير عن إبراهيم، ذكر الداخلي شيخه سنداً بهذه الطريقة، سفيان عن أبي الزبير عن إبراهيم.

فقلت له: يا أبا فلان إن أبا الزبير لم يروي عن إبراهيم، يعني البخاري أوقفه على خطأ في هذا الإسناد، فقال: فانتهرني، انتهره الداخلي، فارق السن شيخ محمد مسند والشيخ شاب في بدايات طلب الحديث فغضب عليه وانتهره، قال: فقلت له: ارجع إلى الأصل إن كان عندك؛ لأن المحدث إما أن يضبط الحفظ في الصدر في الذاكرة أو يضبطه في الكتاب وهذا تقسيم الضبط عند علماء الحديث، ضبط الصدر.

فقال: ارجع إليهم، يعني ارجع إلى الكتاب، فدخل ونظر فيه، يعني دخل الداخلي إلى بيته ونظر في الكتاب إلى السند ثم خرج، فقال لي: كيف هو يا غلام، قال للبخاري: كيف هو الإسناد؟ قلت: هو الزبير بن عدي، هذا التصحيح، الزبير بن عدي عن إبراهيم.

قال: فأخذ القلم مني، من؟ الداخلي شيخه، وأحكم كتابه يعني صحح الخطأ في كتابه، فقال: صدقت، فقال له بعض أصحابه أي البخاري: ابن كم كنت إذ رددت عليه؟ في أي سن كنت؟ قال: ابن إحدى عشرة.

وهذا يدل على الذكاء المبكر الذي كان يتمتع به الإمام البخاري، وأخذ البخاري رحمه الله يطوف على شيوخ بخارة ويأخذ من علومهم المختلفة وحفظ أشهر الكتب الحديثية وهو ابن ستة عشر سنة.

فقد قال رحمه الله: فلما طعنت في ست عشرة سنة حفظت كتاب ابن المبارك ووكيع وعرفت كلام هؤلاء، كلام هؤلاء يقصد علماء الرأي كان دائماً يعني يذكرهم بالضمير، فمنذ بداية حياته بدأ يحفظ كتب الحديث وكان حريصاً على الداري بالعلل ومناظرة الشيوخ والتأمل في الأسانيد وهذا شأن من يريد التميز في علم الحديث وكان يطلع على أحوال الرواة.

وحتى من يقرأ في تراجم شيوخه كانوا معجبين بشخصية البخاري وبحفظ البخاري والملكة التي يتمتع بها الإمام البخاري من ذلك يقول محمد بن أبي حاتم

الوراق: سمعت سليم بن مجاهد يقول: كنت عند محمد بن سلام البيكندي فقال لي: لو جئت قبل يعني قبل قليل لرأيت صبيًا يحفظ سبعين ألف حديث، يقصد الإمام البخاري سبعين ألف حديث وهو لا زال في بواكير طلب العلم وفي بدايات حياته العلمية.

وأيضًا كان البخاري رحمه الله حريصًا على مذاكرة الشيوخ، كان يذاكر مع الشيوخ وكان يناظر في أبواب الرواية والدراية، يقول الوراق: سمعت محمد بن قتيبة يقول: كنت عند أبي عاصم النبيل فرأيت عنده غلامًا فقلت له: من أين أنت؟ قال: من بخارى، قلت: ابن من؟ فقال: ابن إسماعيل، فقلت له: أنت قرابتي فعانقته فقال لي رجلٌ في مجلس أبي عاصم: هذا الغلام يناطح الكباش أي يناظر العلماء الكبار، وهذا وصف يصفون به علماء الحديث، حتى يعني كانوا يلقبون شعبة الكباش النطاح؛ لأنه كان من أمراء المؤمنين في الحديث وكان صاحب حافظة وكان يناظر في الحديث.

وكان له هبة حتى شيوخه يهابونه بسبب قوة حفظه وملكته رغم صغر سنه، يقول شيخ محمد بن سلام البيكندي وهو حافظ ناقد يقول: كلما دخل عليّ هذا الصبي تحريت هذا شيخه البيكندي ومن هو البيكندي! البخاري له مرويات كثيرة في صحيح البخاري عن البيكندي شيخه.

يقول: تحيرت والتبس عليّ أمر الحديث وغيره، ولا أزال خائفًا ما لم يخرج، انظر إلى يعني توقير وتعظيم الشيوخ للبخاري، وهذا يدل على ملكة البخاري وقوة البخاري، وهذا طبعًا كما سوف يأتيها هي من آثار يعني نبوغ البخاري في تأليف الكتاب.

بعد أن انتهى البخاري من الرحلة في بخارى انتقل البخاري إلى رحلة إلى خارج بخارة، طبعًا طريقة علماء الحديث كما ذكر ابن جماعة والخطيب البغدادي وغيرهم ممن ألف في آداب طالب الحديث أن يبدأ بشيوخ بلده فإذا انتهى منهم رحل، وهذا الذي صنعه البخاري رحمه الله، بدأ بشيوخ بلده حتى مر على الشيوخ الفقهاء والمحدثين وأخذ عنهم ثم بدأت الرحلة.

ورحلة البخاري العلمية في خارج بخارة بدأت بعد رحلة الحج كما أسلفنا لما كان مع والدته، والبخاري رحمه الله صاحب رحلة والعلماء يدللون على الرحلة بقريئة معروفة عندهم وهي كثرة الشيوخ.

فالبخاري تجاوز شيوخه الألف مما يدل على كثرة رحلته وتنوع هذه الرحلة وأخذه من المشايخ في أقطار الأرض، ورحلة الإمام البخاري بدأت في الثامنة عشرة من عمره بدأت بمكة التقى بشيوخ مكة ثم توجه إلى المدينة النبوية، وكان عمره في الثامنة عشرة وفي هذه المرحلة سبحان الله لما كان في الثامنة عشرة من عمره وكان في المدينة كتب مسودة التاريخ الكبير " التاريخ الكبير " اليوم تفتحه يعني كتاب دقيق في الجرح والتعديل وما ترك راوي إلا وذكر له رواية وأقوال علماء الجرح والتعديل فيه واليوم يعكف الدارسون في الدراسات العليا عشرات السنوات لتحقيق التاريخ الكبير للبخاري وقد كتبه في هذه العمر المبكرة من حياته وكتب مسودة ثم فصل فيها في تبييض.

ثم توجه البخاري بعد المدينة إلى البصرة وكانت البصرة آن ذاك في وقت البخاري هي محط أنظار أصحاب الرحلة لكثرة ما فيها من علماء الحديث، وقد رحل البخاري إلى البصرة أربع مرات تكررت الرحلة كان يرجع ويذهب مرة أخرى إلى البصرة، طبعًا لك أن تتخيل صعوبة الرحلة من مكة إلى المدينة إلى العراق والمشي على الأقدام وسهولة المواصلات ووسائل النقل في ذلك الزمان.

ثم سافر إلى الكوفة عدة مرات وارتحل إلى بغداد يعني المدن العريقة في العلم في العراق، ثم رحل إلى بلاد الشام ووصل إلى مصر ثم رحل إلى الجزيرة إلى جهة خراسان وما جاورها.

وكان يحرص البخاري أن يأخذ من كل مدينة أعالي الأسانيد، وهذا إن شاء الله سوف يأتينا لما نتكلم عن صحيح البخاري أن من ضمن المعايير العلمية لصحيح البخاري انتقاء الأسانيد العالية، ولذلك البخاري لديه الثلاثيات أسانيد ليس بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم إلا ثلاثة أنفس، وهذا يدل على حرص البخاري على العلو.

وهكذا علماء الحديث، كانوا يحرصون على علو الأسانيد وتعرفون يحيى بن معين لما كان مريضاً معتلاً فجاءوا له فقالوا له: ماذا تتمنى؟ قال: أتمنى بيتاً خالياً وإسناداً عالياً، البيت الخالي حتى يتفرغ للحفظ والمذاكرة؛ لأن البيت إذا كان كثير الإزعاج لا يستطيع الإنسان أن يركز في العلم والحفظ والإسناد العالي هو الذي ينشأ مع الرحلة في طلب الحديث.

يقول الحاكم: فقد رحل البخاري إلى هذه البلاد المذكورة في طلب العلم، وأقام في كل مدينة على مشايخها، قال: إنما سمى من كل ناحية جماعةً من المتقدمين ليستدل به على عالي إسناده، وكان البخاري في الحقيقة لا يضيع وقته إلا في العلم، وكان يصطاد كل شاردة وواردة في العلوم.

وكان مختلفاً منذ صغر سنه عن بقية طلاب الحديث، يقول هانئ بن النضر في سيرته: كنا عند محمد بن يوسف الفريابي وهو أيضاً من شيوخ البخاري، يعني ذهبوا رحلة إلى الفريابي قال: بالشام، وقال: وكنا ننتزه فعل الشباب في أكل الفرساد ونحوه، الشام كانت بلاد جميلة وفيها البساتين وفيها الفرساد التوت المعروف.

وكان محمد بن إسماعيل معنا قال: وكان لا يزارحنا في شيء مما نحن فيه ويكب على العلم، يعني هم مشغولين بالرحلات والمزارع والتوت، وهو مشغول بالعلم والحديث وهذا يدل على حرص البخاري في بواكير حياته العلمية.

وروى وراقه أيضاً محمد بن أبي حاتم: كان أبو عبد الله إذا كنت معه في سفر يجمعنا بيتاً واحداً إلا في القيض أحياناً، طبعاً كون الوراق يكون معه في بيت واحد هذا أدق في نقل، يعني ينام معه في غرفة واحدة أو في مكان واحد أدق في نقل بعض التفاصيل الجزئية في ترجمة الإمام البخاري.

يقول: فكنت أراه يقوم في ليلة واحدة خمس عشرة مرة إلى عشرين مرة، في كل ذلك يأخذ القداحة فيوري ناراً بيده ويسرج ثم يخرج أحاديث فيعلم عليها ثم يضع رأسه، يعني تأملوا حال البخاري حتى في النوم والذهن مشغول بالعلم وانتقاء الفوائد العلمية في كل ما رووه وهو نائم يستيقظ ويستحضر الفائدة ويكتبها ثم

ينام، فهذه الحادثة تدل على حرص البخاري على تقييد الفوائد واقتناص الشوارد حتى في ساعة الإخلاء.

وكون الشخص يقوم من النوم ليدون الفوائد ويستذكر الفوائد هذا يدل أن العلم مستحضر معه حتى في أوقات النوم، اليوم أنتم تنامون تستحضرون الفوائد أم الأحلام؟!.

فالبخاري كان يستحضر هذه الفوائد ويقوم ويسجل هذا الأمر، وكان رحمه الله ينفق ما لديه من مال في العلم، حتى أنه كان يقع في حرج شديد جدًا، لكنه يستشعر لذة التعب كما قال يحيى بن كثير: لا يستطيع العلم براحة الجسم.

من المواقف الغريبة التي يتعجب منها طالب العلم قال محمد بن أبي حاتم: سمعت البخاري يقول: خرجت إلى آدم بن أبي إياس أحد علماء الحديث، قال: فتخلف عني نفقتي، قال: حتى جعلت أتناول الحشيش حشائش الأرض، لا يجد النفقة ولا أخبر بذلك أحدًا. عزة النفس حتى لا يذل نفسه.

قال: فلما كان اليوم الثالث أتاني آتٍ لم أعرفه فناولنا صرة دنانير وقال: أنفق على نفسك وهذا من باب التوفيق والكرامات الكثيرة التي حصلت للإمام البخاري.

هكذا كان الإمام البخاري في جمع الحديث وقد قنع باليسير من العيش، أيضًا مما حدث له في حياته فيما يتعلق بالتعب والبذل ما ذكر عمر بن حفص الأشقر رحمه الله، قال: كنا مع محمد بن إسماعيل بالبصرة نكتب الحديث، قال: ففقدناه أيامًا، قال: فطلبناه فوجدناه في بيت وهو عريان، وقد نفذ ما عنده ولم يبق معه شيء، يعني حتى باع ملابسه حتى يطلب الحديث.

قال: فاجتمعنا وجمعنا له الدراهم حتى اشترينا له ثوبًا وكسوناه، ثم اندفع معنا في كتابة الحديث.

وهذا يدل على صبر الإمام البخاري حتى كما أسلفنا أنه أكل الأعشاب ليقوم أوده، وتأبت نفسه أن يطلب المال من أحد إغراءً لحديث النبي صلى الله عليه وسلم.

أيضًا مما يتعلق بسيرة الإمام البخاري يعني نتطرق إلى ذكر المذهب الفقهي وعناية البخاري بالفقه، فالإمام البخاري لاشك أنه من الأئمة الأجلاء الفقهاء المجتهدين رغم شهرته الحديثية، وقد جانب الصواب من قال: إن البخاري محدث لا فقيه، فهو لم يطلع على الصحيح ولم يدرك الفقه العميق الغزير الذي هو في مكنون هذه التراجم والعناوين التي يطلع عليها طالب الحديث.

الإمام البخاري درس الحديث في بداياته لطلب العلم وقد أسلفنا أنه قال عن نفسه: لما طعنت في الست عشرة سنة حفظت كتب ابن المبارك ووكيع وعرفت كلام هؤلاء، يعني أهل الرأي والمذهب الحنفي.

وكان البخاري يتردد على فقهاء مرو، منطقة مرو وهو شافعية، واستفاد أيضًا في الوقت نفسه من أصحاب مالك، وكان يتردد على بغداد فكان يجالس الإمام أحمد بن حنبل رائد المدرسة الحنبلية.

وبهذه الطريقة كان الإمام البخاري قد أخذ معطيات المذاهب الفقهية الأربعة المشهورة، والعلماء قد شهدوا له بالفقه، فكان من ألقابه الفقهية أنه سيد الفقهاء وتاج الفقهاء، كل هذه العبارات وردت في ترجمة الإمام البخاري.

يقول نعيم بن حماد: محمد بن إسماعيل فقيه هذه الأمة، ويقول إسحاق بن راهوية: لو كان محمد بن إسماعيل في زمن الحسن بن أبي الحسن البصري لاحتاج إليه الناس لمعرفته بالحديث وفقهه.

ويقول محمد بن يوسف الفربري: كنا مع أبي عبد الله عند محمد بن بشار فسأله محمد بن بشار عن حديث فأجابه، فقال: هذا أفقه خلق الله في زماننا وأشار إلى محمد بن إسماعيل، طبعًا هؤلاء أشياخه إسحاق بن راهوية ومحمد بن بشار، قال حاشد بن إسماعيل: كنت بالبصرة فسمعت بقدم محمد بن إسماعيل فلما قدم قال محمد بن بشار: دخل اليوم سيد الفقهاء، وقال: سليم بن مجاهد ما رأيت منذ الستين سنة أحدًا أفقه ولا أزهد في الدنيا من محمد بن إسماعيل.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: أما البخاري وأبو داود فإمامان في الفقه من أهل الاجتهاد، وقال الذهبي: كان رأسًا في الفقه والحديث مجتهد.

وقال ابن حجر في ترجمته: الإمام العلم الفرد تاج الفقهاء، فهذه شهادات عظيمة من العلماء من أشياخه ومن المتأخرين، وحتى أن بعض العلماء وصفه بالاجتهاد المطلق، وممن وصف الإمام البخاري بالاجتهاد المطلق شيخ الإسلام ابن تيمية والحافظ السخاوي وجمال الدين القاسمي وصفوه بهذا الوصف، وما يخفاكم أن المجتهد إما مجتهد مطلق وإما مجتهد مذهب.

وله أسانيد كثيرة في الفقه تدل على ملكته الفقهية منها " رفع اليدين في الصلاة " وهو مطبوع، و " القراءة خلف الإمام " وهو مطبوع، وكتاب " الأشربة " غير مطبوع، وكتاب " الهبة " أيضًا غير مطبوع.

وأيضًا مما يدل على الملكة الفقهية الكبيرة عند الإمام البخاري تراجم الأبواب، والمقولة المشهورة عند العلماء المعروفة: فقه البخاري في تراجمه.

يقول ابن المنير في مقدمة كتابه " المتواري ": سمعت جدي يقول: كتابان فقههما في تراجمهما: كتاب " البخاري " في الحديث، وكتاب " سيبويه " في النحو.

وقال الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي: كان البخاري يذكر الحديث في مواضع ويستخرج منه بحسن استنباطه وغزارة فقهه معنى يقتضيه الباب الذي أخرج فيه.

وجه الشاهد: أن تراجم أبواب البخاري آية كبيرة على غزارة فقه البخاري. ولعلنا نقف مع هذا القدر في ترجمة الإمام البخاري ونكمل إن شاء الله في اللقاء القادم أيضًا ما تبقى من هذه الترجمة؛ لأن طالب العلم في الحقيقة لا يستغني عن هذه الترجمة التي تشحذ الهمة أسأل الله عَجَّلْ أن ينفعني وإياكم بالعلم النافع والعمل الصالح إنه ولي ذلك والقادر عليه وصلى الله وسلم على نبينا محمد وجزاكم الله خيرًا.